# عاكفا على المخطوطات العربية [1]

إينياس كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى ورئيس مدرسة المستعربين السوفيتية ، بحاثة مدقق فى عالم الأدب والحضارة العربية . إن بحوثه الكثيرة مشهورة فى دنيا العلم فى الخارج وفى الاتحاد السوفيتى . فهو ليس بعالم فحسب ، ولكنه كاتب ممتاز ومنشئ بارع . ولذلك فان القراء السوفيتيين قد رحبوا كثيراً بكتابه « عاكفا على المخطوطات العربية » الذى تولى نشره مجمع العلوم فى الاتحاد السوفيتى .

ليس الكتاب مذكرات بالمعنى الصحيح على حد تعبير المؤلف فى مقدمته ، فهو يقول : « إن ما دونته على الطرس ليس ذكريات حياتى ، وإنما هى ذكرياتى عن المخطوطات العربية التى لعبت دوراً كبيراً فى حياتى » . والواقع أن البطل ، فى كل فصل من فصول هذا الكتاب ، هو عبارة عن مخطوط لا تقل سيرته متعة عن أبطال القصص العربية . فلكى يتم إذن ما كتب على لوحة القدر لكل مخطوط راقد فى مكتبة كالأميرة المسحورة ، لا بد لفارس من فرسان تلك الدولة ، عالم ، أن يقوم بغزوة . لابد أن يحيى حبه للعلم هذا المخطوط وينفث فيه الروح .

لقاء العالم والمخطوط ، والطريق الخصبة بالمغامرات الأدبية التى يقطعانها معاً ، ذلكم هو الموضوع الجذاب الذى تضمنه مؤلف كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى .

إنه يقول فى مقدمته : « لقد أردت ، قبل كل شئ أن أقص ما يشعر به العالم وهو يدرس مخطوطاً ؛ أردت

(١) من كتاب المستشرق الروسى العظيم نقلا عن مجلة الآداب السوفيتية عدد ٢ (فبراير سنة ١٩٤٦) .

ان أكشف عن المشاعر التى تنتابه ولا يتكلم عنها إطلاقاً فى بحوثه العلمية . أردت أن أتحدث عن عوامل الفرح أو اليأس التى تنشأ عن العمل المكتبى الذى لا يشك فيه الكثيرون إذ يقدرون أنه ممل غير مجد و بعيد عن الحياة » .

فالقصص الثلاث التى ننشرها مقتطفة من الفصل الثانى من كتابه « سياحاتى فى الشرق » .

إن المؤلف يصور لنا نحوثه ، كعالم فتى ، فى دور الكتب فى الشرق الأدنى بين سنتى ١٩٠٨ و ١٩١٠ .

مرت أودسا ، والآستانة ، وأزمير كما لو كانت فى ضباب . وفى شهر يوليه كنت فى بيروت . لقد صادفنى كثير من خيبة الأمل ، وتبدد ــ قبل كل شئ ــ ما كنت أخادع به نفسى . لقد تبين لى أن معلوماتى المتينة فى اللغة العربية الفصحى كانت قليلة النفع بالقياس إلى لغة الحديث التى لم أكن أعرف منها إلا بعض المبادئ التى وقفت عليها من إلمامى بما كتب عن العادات القديمة . كان الناس فى الطريق لا يفهمون ما أقوله . وكان لا بد لى من بذل جهد كبير لأفهم اللغة التى يتكلمونها فى سرعة شديدة . ومع ذلك لم يكن لى بد من « أن أتكلم » فهذا بعض ما جئت له . ولا بد من اتخاذ الاجراءات الحازمة . فقررت أن أقضى شهرين فى ضيعة صغيرة فى لبنان ، حيث لا أسمع إلا الكلام باللغة العربية .

فى بادئ الأمر شغلت الطبيعة والناس كل اهتمامى حتى ليخال أن الكتب أصبحت فى المقام الثانى . فكنت أجتهد ، ما استطعت ، فى معاشرة السكان لأتمرن فى اللغة . وكان السكان بطبيعتهم يحبون المعاشرة ، ويميلون إلى التعارف والتآلف ، فكانوا ينظرون فى استطلاع مرحبين فى كل مكان بهذا « المسكوفى » الذى يبدو مدهشاً غريباً . ولم يكن ذلك مما يسهل احتماله على طبيعتى النافرة . وكان هؤلاء الأصدقاء يقولون لى مازحين : « إنك تشترى ، ولا تبيع ! وتصغى ولا تقول » . وإذ لم أستطع أن أغير طبيعتى ، فقد رأيتنى منجذباً نحو الكتب التى كنت أرتاح إليها أكثر من ارتياحى إلى الناس .

. . . وقد تم التوازن ، إلى حد ما ، بين الكتب والناس ، خلال الشتاءين اللذين قضيتهما بعد ذلك فى بيروت ، مختلفاً إلى الجامعة اليسوعية وهى جامعة فرنسية عربية . على أنه يجدر بى أن أعترف بأن الناس الذين قابلتهم هناك ، كانوا ، من جانبهم « رجال كتب » ، وهذا ما سهل التقارب . ما أكثر الأسماء بين الأوربيين وبين العرب .

. . . صورة غنية بالمناظر الخلابة تجلت لنظرى فى الشرق ، غير أن ثروته من المخطوطات هى التى أسرتنى ، فلم يعد فى استطاعتى أن أخلص من هذا السحر . لم أكن أعرف إلى ذلك العهد إلا بعض فهارس للمخطوطات . أما هنا فتوجد مجموعات كاملة من هذه الأثبات التى تحوى المئات والألوف من الأرقام . كنت أشعر باحساس الطفل أمام المحيط الذى لا ينتهى ، وكنت مسحوراً لا أستطيع أن أبعد عنها ، كان ذلك فوق طاقتى .

## رسالة فى النحو أو رسالة فى مهاجمة الدين ( ١٩١٠ — ١٩٣٢ )

كان مقامى فى القاهرة يوشك أن ينتهى ، ولكننى لم أستطع أن أنتزع نفسى من بين المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الأزهر وهو مدرسة الاسلام العليا . وبينما كنت فى دار الكتب الخديوية ، أستطيع أن أطلع على الفهارس المطبوعة للمخطوطات ، لم أكن أجد هناك إلا فهرساً مقتضباً قد كتب باليد . ولذلك كنت مضطرا إلى البحث عن المخطوطات فوق رفوف المكتبة ، حسب عنواناتها ، التى لم تخل من خطأ ، وكنت أعتمد فى ذلك على المصادفة .

ففى أوائل يناير ١٩١٠ ، وخلال بضعة الأيام الأخيرة الباقية لى ، عثرت على رسالة فى النحو والصرف لأبى العلاء الشاعر الفيلسوف الضرير(١) . لم تكن الرسالة فى نفسها هى التى استرعت اهتمامى ، ولكننى كنت أعرف المؤلف جد المعرفة ، وكنت أجمع — بغير غرض معين — كل ما يتصل به . كان ذلك — إذا صح التعبير — كوصية من أستاذى ف. روزن لذى شعر بشغف — فى سنى حياته الأخيرة — نحو هذا المتشكك والأديب اللاذع . إن تحليله التشاؤمى الدقيق ينفذ إلى أعماق النفوس ويبصم بابتسامته الرقيقة الساخرة ، مرارة اليأس التى تثيرها الخواطر المقطعة .

ومن المحقق أنى لم أكن أنتظر أن أجد فى هذه المخطوطة آراء جديدة مميزة لأبى العلاء من تلك الناحية ، ولكننى دهشت لأن الاشارة إلى هذا الكتاب كانت نادرة وأن نسخاً أخرى منه كانت مجهولة ، وشاركنى فى دهشتى الشيخ المحمصانى الذى رأى له مخطوطات أخرى ! كان الشيخ أحد أمناء المكتبة ، وكنت أتحدث إليه كثيراً فى مختلف الموضوعات الأدبية ، بل عن تعلم اللغة الفرنساوية أيسير هو أم عسير ، وكان صدور هذا السؤال من مثله يعد شذوذاً . كان يعطف على عطفاً خاصاً ، وكانت إليه شؤون المسلمين الروسيين ، فظن أن إشرافه هذا يمتد إلى .

لا يبدو على هذا المخطوط شئ هام عند أول نظرة . كانت نسخة كبقية النسخ الأخرى . نقلها ناسخ محترف فى القرن التاسع عشر عن نسخة أصلية . وليس من شك فى أن هذا الناسخ لم يحسن الانتفاع بهذه النسخة القديمة . على أننى ما كدت أقرأ السطور الأولى حتى أدركت السبب فى بقاء هذا المؤلف قليل الانتشار إن لم يكن مجهولا . فلو أن للعرب فهرسا للكتب التى تحظر قراءتها لاحتلت تلك الرسالة مكان الشرف منه .

كانت الرسالة فى ظاهرها تبحث عن النحو ، فكانت تتناول شرح القواعد المقررة الشائعة لمختلف أنواع التصريف فى أسماء الملائكة مع الاستشهاد المعتاد بآيات القرآن والرجوع إلى الاشارات الأدبية المختلفة . على أن ذلك كله لم يكن إلا ستاراً . فالكتاب بأكمله مشبع بروح السخرية المستترة التى لا يسهل على من يجهل روح أبى العلاء الأدبية ، أن يستوعبها . وكذلك على من لا يشعر بأن لأبى العلاء طرقاً فى تركيب العبارات خاصة به ، وأن هذا التركيب يخفى بمهارة فائقة على أعين المبتدئين غير المختصين فكرة

---

(١) يشير الى رسالة الملائكة وقد طبعت أخيراً فى دمشق طبعة علمية قام بها الأستاذ محمد سليم الجندى .

جريئة . الحق أن هذه الرسالة فى النحو ليست إلا رسالة نقد لاذع خفى للفكرة التى يكونها المسلمون لأنفسهم عن الملائكة . وتلك هى الوسيلة التى لجأ إليها أبو العلاء فى مؤلف آخر مشهور هو « رسالة الغفران » حيث يتهكم بنفس السخرية اللاذعة ، بالوصف التقليدى لما وراء الموت .

وتعجلت فى قراءة السطور التى خطها الناسخ الجاهل وأنا أكد ذهنى لعلى أن أكشف عن حقيقة فكرة المؤلف أثناء هذا النص المشوه . فكنت أحيانا أجد بصيصاً من النور غير منتظر يجلو أمامى إشارة خفية . وكان لا بد لى من أن أمر بعبارات أخرى دون أن أتمكن من فهمها ودون أن أتمكن من إيجاد وسيلة للتغلب على عجزى ، نظراً للساعات القلائل الباقية من إقامتى فى القاهرة . فاكتفيت إذن بنسخ نبذ قصار فى سرعة . وعند ما أعدت المخطوط لآخر مرة إلى الشيخ المحمصانى اقتصرت على قولى له ، وأنا فى عجلة من أمر الرحيل : « إذا قدر لك أن تقرأه يوماً فلسوف تدرك السبب فى قلة انتشاره » .

كان قطارى يغادر القاهرة فى الصباح المبكر . ففى اللحظة الأخيرة ، دهشت إذ رأيت الشيخ يبحث عنى وهو يلهث تعباً . ولم يجد من الوقت إلا ما يكفى ليصيح بى من نافذة القطار الذى بدأ يتحرك وعلى مسمع من الجمهور الواقف على الرصيف ودهشته : « لم أنم من ليلتى ! إن من المدهش أن أبا العلاء لم يحرق ومعه رسالته ! » . ولم أكن بحاجة إلى شرح أوفى لأدرك أن معنى « الرسالة فى أصول اللغة » قد وضح له وتجلى .

ومضت سنوات طوال قبل أن أصل إلى تفهم جميع إشارات المتشكك الضرير والوقوف على دقائق المعانى والاستشهادات والمراجع الأدبية ، ولكننى لم أنس استكشافى الصغير .

. . . وفى صيف ١٩٢٦ ، وبينما كنت فى عزلة فى بقعة على حدود القوقاس عند ساحل البحر الأسود ، انتهيت من تقويم نص محرف منذ أجيال خلت كان يخال أنه غير مفهوم . وفى سنة ١٩٣٢ ، طبعت رسالة أبى العلاء ، بعد أن مر اثنان وعشرون سنة منذ ناولنى الشيخ بمكتبة الأزهر ، فهرس المخطوطات المتواضع الذى خطه قوم لا يعلمون . وهكذا انتهت قصة استكشافى الصغير تحت قبة الجامع الأزهر ، والذى نشره مجمع العلوم فى مطبعته فى جزيرة فاسيكفسكى فى لينينجراد .

## رسالة لم تكتب (١٩١٠)

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميدا وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب

لا أدرى لماذا يلح على هذا الشعر العربى يذكرنى بشهر يناير سنة ١٩١٠ حين كنت أعود من القاهرة إلى بيروت للمرة الثانية .

لم تكن الاسكندرية « بلد المال والقطن » تعنينى ؛ فمنذ عهد بعيد كانت تذكرنى بالغرب أكثر مما تذكرنى بالشرق ، ولكننى مع ذلك اعتزمت الاقامة فيها بضعة أيام ، كنت أريد أن أتعرف إلى حليم زيات الذى كان يتاجر بالفواكه المجففة مع جميع أنحاء العالم

وكان من الهواة فى جمع المخطوطات ، كان يحسن اكتشاف الأوضاع المجهولة فى الحضارة العربية وينفث فيها الروح فى أشعاره التى نشرت فيما بعد . وكنت أريد أيضا رؤية المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الاسكندرية .

لقد أخبرنى الروائى الأديب زيدان وأنا فى القاهرة ، أن مكتبة الاسكندرية قد امتصت جزءاً من مكتبة الخديوى الثانى إبراهيم باشا ، نجل محمد على العظيم رأس الأسرة المالكة فى مصر . وسلمنى زيدان خطاباً فتح أمامى جميع الأبواب فى الحال .

وبينما كنت لا أزال متأثراً الأزهر ، مدرسة الاسلام العليا ، رأيتنى هنا أمام مشهد من نوع آخر . كانت المكتبة فى بناء جديد على طراز أوربى تابع للبلدية . وكان القسم الشرقى فيها يشغل قاعة فسيحة صفت إلى جدرانها الخزائن التقليدية وفى وسطها مائدة كبيرة . كنت فى تلك الآونة الزائر الوحيد ، على أن أمين المكتبه فتح لى القاعة عن طيب خاطر . وكان الأمين الذى يرأس هذا القسم شيخا حديث السن درس فى الأزهر . على أنه ، لولا لباسه المصرى ــ وهو عبارة عن عباءة رمادية بغير ياقة ، فضفاضة الأكمام ــ لصعب التكهن بأنه ربيب هذا المعهد . فنظارته ، ولحيته المدببة ، ولغته الفرنسية التى يخال أنه كان يفخر بها أكثر من المخطوطات العربية الموكولة إلى حراسته ! كانت تخيل ، لأول وهلة ، أنه أوربى متنكر . على أن لغته العربية وحديثنا عن الأدب العربى ، قد تغلبا على هذا المظهر الذى يرجع فى الغالب إلى طبيعة أنوسط فى الاسكندرية .

كانت المخطوطات منظمة . بل كان هناك فهرس مقتضب موضوع على غرار فهرس الأزهر ، ولكن بغير ما تمييز بين المطبوع والمخطوط . ومع رغبة الشيخ الصادقة فى القيام بما تتطلبه المقتضيات الأوربية ، فان فكرته عن قيمة الكنوز الموكولة إليه كانت ضئيلة . ولم تخب آمالى ، فقد وجدت ، ضمن نحو من عشرين مخطوطا جديرة بالعناية ، درتين من نفائس الشعر العربى الذى كنت أعنى به عناية خاصة .

وكان أحد المخطوطين يشتمل على قصائد لشاعر عربى معاصر للمؤرخ السورى الشهير ابى الفداء . كان هذا الشاعر وطنياً كبيراً ومداحا متحمساً من مدينة حماة التى كنت أعرفها ، أنا أيضا ، ببساتينها وهزيز نواعيرها المستمر . وكان هذا الشاعر يهجر اللغة الفصحى أحيانا ليكتب بلغة الحديث فى سوريا . فنسخت ، بغير ما عجلة ، بعض المقطوعات ونشرتها بعد خمس سنوات . أما المخطوط نفسه فهو الوحيد فى العالم إلى الآن ، ولا أدرى لماذا لم يثر اهتمامى .

أما الثانى فقد ذاد عنى الطمأنينة وقتاً طويلا . أرجأت فحصه إلى آخر يوم كنت سأقضيه فى الاسكندرية ؛ إذ أننى حجزت لى مكاناً على الباخرة . ولما أخذت هذا المخطوط بيدى جعلت أدرس بشغف ما كان يخيل إلى أنه نموذج من النسخ البديع . كان يحمل تاريخ القرن السادس للهجرة ويتصف بما امتازت به مدرسة ابن البواب الشهيرة . وقد كتب على صفحة من الحجم المتوسط ثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر بطريقة فنية بحروف كبيرة تحمل جميع علامات النطق والالقاء . وتبعا للطريقة الخاصة المتبعة عند الخطاطين ، كان البيت من الشعر الذى لا تكمل كتابته فى السطر ، تنقل بقيته إلى أعلى بحروف أصغر حجماً . هذا الاختلاف العجيب فى النظام ، كان يضفى على الرسم شكلا بديعاً . فكانت ألوانه ــ وخصوصاً توازن الألوان الخضراء التى شحبت على الزمن ــ مريحة للنظر . لا شك

فى أنه من صنع فنان ماهر . لقد نفذ هذا العمل بتلك الدقة العظيمة التى يتطلبها هذا الفن ، وبتلك الحرية التى يتمتع بها الفنان الممتاز .

وسرعان ما نسيت هذا الشكل بعد أن تصفحت المخطوط ، وأخذت بما حواه . لقد كنت أرى تحت عينى أبياتا لشاعر عربى من فحول شعراء العصر القديم ، ويرجع تاريخه بغير شك إلى ما قبل الاسلام . كانت هذه الأبيات ترسم صوراً ثمينة لحياة البدو ، وكانت تعطى تفاصيل عن الوسط الذى عاش فيه المؤلف تكاد تكون صوراً فوتوغرافية . وكانت مؤلفة على نمط القصائد فى العصر الجاهلى ، وقد روعيت فيها جميع قواعد النظم . وأحيانا كان التأمل يقوم مقام الرسوم البارزة . وقد علق فى ذهنى فى الحال مطلع قصيدة :

اودى الشباب حميدا ذو التعاجيب    أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميدا وهذا الشيب يطلبه    لو كان يدركه ركض اليعاقيب

لم أكن أذكر اسم الشاعر سلامة بن جندل المدون على المخطوط إلا على نحو مبهم . ومن الحق أنه ليس من فئة الشعراء الذين نشرت لهم مختارات باسم ديوان الستة الجاهليين . ومع ذلك فان المرء ليتبين فى كل بيت فنا ومهارة من نوع خاص . فأخذت أقرأ ، باضطراب متزايد ، سطراً إثر سطر . وكنت أشعر ، وقلبى يخفق، بأننى سأهتدى إلى استكشاف علمى. لم يكن يوجد فى المكتبة أى مرجع من المراجع التى تعودنا نحن الاوربيين أن نلجأ إليها . ولم أحمل معى خلال أسفارى كتاب بروكلمان ذلك المرجع الثمين لجميع المستعربين ، ولكننى كنت على يقين من أنه لو ذكر شاعرى هذا ، فى أية ناحية من نواحيه ، فلا بد من ذكر المخطوط الذى اكتشفته ، وهو الوحيد فى العالم أجمع .

وكان لا يمكن أن أترك هذا الاستكشاف . وقد تقرر الأمر فى اليوم نفسه . كان لابد أن أسافر فى اليوم التالى ، وكان مكانى محجوزاً على الباخرة . ولكننى أسرعت فاستبدلت بتذكرتى تذكرة أخرى على الباخرة التالية . وكنت مسترسلا فى نوع من الذهول ، وانقطعت يومين إلى عمل محموم على مرأى من الشيخ المشدوه الذى انتهى به الأمر إلى أن يترك لى مفتاح القاعة على أن أسلمه للحارس حين أنصرف .

وأبحرت وكأننى فى حلم ؛ فقد كانت أفكارى كلها متجهة إلى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام . كنت أحمل فى جيبى نسخة من أشعار سلامة بن جندل مدعومة بجميع التفاصيل الدقيقة عن مخطوط الاسكندرية . ولم أستطع النوم ليلا . وكانت باخرتنا قد أصبحت على مرأى من يافا . فأخذت أقطع ظهر الباخرة جيئة وذهابا ، ولم أفكر فى حدائق البرتقال التى كان البحر يحمل إلينا عبيرها . وحدثت نفسى بأنه يحسن بى أن أتخذ هذا الشاعر موضوعاً لرسالتى لنيل الدكتوراه . كنت أتخيل نفسى وقد بدأت أدرس الجو الحقيقى الذى نشأت فيه أناشيد سلامة بن جندل ، دراسة شبيهة بمؤلف جاكوب عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ؛ وكنت أرانى وأنا أفيض فى شرح أفكار شوارتز فى شاعر من شعراء صدر الاسلام ، كما دونها فى المؤلف الذى وضعه عام ١٩٠٩ . ومن الحق أننى كنت قد اخترت موضوع رسالتى للدكتوراه ، وكدت أتمها ، ولكن سلامة قد أبعد كل ذلك عن فكرى . وإنه لما يفتقر لمستعرب حديث السن أن يرغب فى الاعلان عن استكشافه فى أقرب وقت ،

وأن يطالب بالأولوية بحيث يحتل مؤلفه مكانا متواضعاً فى مكتبة تاريخ العلم ! وبينما كنا نقترب من بيروت قررت نهائيا أن أهجر موضوع رسالتى الأول ، وأن أقف عنايتى على الثانى لا سيما وقد خيل إلى أن هذا الموضوع سيشغل منى وقتاً قصيراً .

ووصلنا إلى بيروت . إن المرء ليدرك مقدار ما كنت أشعر به من انفعال وعجب عند ما أسرعت ، فى الساعة الثامنة صباحا ، إلى زيارة أستاذى المستشرق لويس شيخو ، فى جامعة القديس يوسف التى كان بنيانها الضخم يشرف على جميع الحى الذى كنت أقيم فيه ، ويبدو للناظر من جميع أطراف المدينة . كان أستاذى أيضا ، يعيش فى عالم الكتب والمخطوطات . فليس ثمة شك فى أنه سيدرك مقدار ما أشعر به . كنت أعلم أنه سيشاطرنى سرورى وتأثرى ، كما كنت على يقين من أننى سأجده فى حجرته المتواضعة ، وهو يكتب أو يراجع أصول مجلة المشرق التى يرأس تحريرها ، أو فى المكتبة الشرقية الفسيحة فى الطابق الذى كنت أدرس فيه . هناك كان لا يوجد غيرنا إلا بعض أساتذة كلية الشرق الذين كانوا يترددون عليها أحيانا .

وكان شيخو ــ كما قدرت ــ فى حجرته مهتما بمراجعة عدد المجلة المعد للاصدار . وبعد تبادل العبارات الأولى وقع نظرى أمامه على أبيات من الشعر ، فسألته عما عسى أن يكون ذلك المقال .

فأجابنى : « إننى أنشر ديوان سلامة بن جندل » . فاختلط على الأمر تماماً ، ولم أستطع إلا أن ألقى عليه سؤالا واحداً : « عن مخطوطة الاسكندرية ؟ » فدهش شيخو ونظر إلى وقال : « كلا ! عن مخطوط الآستانة . » وسألنى بدوره عما يسبب اضطرابى إلى هذا الحد . ولما تمالكت نفسى قليلا رويت له سبب مجيئى إليه ، فكانت دهشته عظيمة . وأخذ يشير بيديه صائحا : « ما أعجب ذلك ! » وأخذنا فى معارضة المخطوطين . كانا شقيقين ، صادرين عن أم واحدة وفى تاريخين متقاربين .

ولم يكن الظرف الذى أثار عند شيخو فكرة هذا العمل ، أقل غرابة ودهشة . كان المستشرق الفرنساوى الشهير ك . هوايايا قد نشر ، منذ بضعة شهور خلت ، فى « المجلة الآسيوية » نفس أشعار سلامة نقلا عن مخطوط الآستانة . ولما لم يكن كاتب المقال مستعرباً ممتازاً فلم يصادف مقاله نجاحاً . هنالك قرر شيخو ، وكان منذ عهد بعيد قد نسخ المخطوط ، أن ينشره على طريقة أدق . كان بعيداً عن الظن وجود مخطوط فى الاسكندرية ؛ فلم يسعنى إلا أن أقدم له نسختى فساعدته على بعض التفاصيل .

وهكذا لم تكتب الرسالة قط على الرغم من الشروع فيها ، وتبدد حلمى فى الأولوية المزعومة . وأثارت نسخة شيخو بعض المقالات والتعليقات ، على أن مؤلفا ضخما عن سلامة ، موضوع أحلامى على الباخرة ، يحسن أن يكتب . والآن ، عند ما يتحدث الناس عن أثر المصادفة فى البحث العلمى ، أذكر دائما أن ثلاثة من العلماء : فرنسى وعربى وروسى ، قد درسوا فى وقت واحد نفس الشاعر العربى عن نفس المخطوط ، وعند ما أصادف أشعار سلامة أو اسمه ، تتمثل لى قاعة ساكنة فى الاسكندرية الصاخبة ، وشيخ حديث السن مدبب اللحية على النمط الفرنسى ، ونسخة المخطوط المكتوبة بحروف كبيرة خضراء تنعكس منها أشعة ذهبية ، وأسمع همسا فى أذنى :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب  أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حميداً وهذا الشيب يطلبه  لو كان يدركه ركض اليعاقيب

وربما فكرت فى أعماق نفسى ليتنى لم أعدل عن اتخاذ سلامة بن جندل موضوعا لرسالتى.

## كتاب الصفد (١٩٣٤)

طوبى للعالم الذى قدر له، فى حياته، ان يلاحظ نشأة فرع جديد من أفرع العلم ونموه؛ ذلك العالم الذى رأت عيناه استكشافات طارئة، ودرست أمامه أسانيد تم استكشافها حديثا، وأدت إلى إعادة تكوين مصورة رهيبة، مجهولة من حقبة من الباحثين السابقين. هذا ما أتيح لى بالقياس إلى لغة الصفد وثقافتها. هذه الثقافة ازدهرت خلال قرون فى آسيا الوسطى، وتشعبت فيما وراء ذلك. لقد حطمها العرب ولكنها لم تزل، واندمجت فى طور جديد مكمل لخط حضارة آسيا الوسطى، وهو خط واحد مستمر.

كنت مراقبا بسيطا للجهود المضنية التى كان يبذلها زملائى ممن هم أكبر منى سنا، وإلحاحهم فى تفسير السطور التى استكشفوها فى مخطوطات الصفد، وقد كانت حتى الأمس خفية. وكنت أبعد ما أكون عن التفكير، أنا المستعرب الغريب عن تاريخ آسيا الوسطى، فى أننى سأشترك فى هذا العمل، وأننى سأقبض بيدى على أثر ثمين للثقافة العربية، وحيد فى نوعه، تنعكس منه أشعة عصر فاجع هو عصر النزاع الأخير بين الصفد والعرب. لقد أرادت المصادفة ذلك. لقد نشرت فى لينتجراد مخطوطات عربية وأخرى بلغة الصفد، على مائدة واحدة، ووقف أمامها جنبا إلى جنب، رجلان أحدهما مستعرب والآخر ممن يدرسون لغة إيران، وانحنيا كمحمومين على حروف تكاد تكون ظاهرة. إنه لمن الصعب أن نقول أمام أى الاثنين قد انبثق أول شعاع من النور، فأضاء الطريق الذى يجب أن يسلك والذى جعلهما ينتفضان معاً كأنما قد مسهما تيار كهربائى.

فى سنة ١٩٣٢ استولى على علماء اللغة الفارسية فى لينتجراد اضطراب شديد، فقد سرى نبأ بأن قد استكشف فى تاجستان مخطوطات عن الصفد، لم يعثر منها على شىء فى ذلك العهد فى هذا البلد نفسه، وإنما وجد فى البلاد التابعة لها بتركستان الشرقية. وقد أخذت هذه الأنباء تتحقق وتذكر مخلفات محفوظات استكشفت فى جبال موجس على ساحل زرافشانا الجنوبى. فأرسلت — فى خريف سنة ١٩٣٣ — بعثة صغيرة خصيصا للحفريات المنتظمة. وتحقق كل شىء، وحجبت قيمة هذه الوثائق جميع ما تقدمها من الاستكشافات. وأغرب من ذلك أن الباحثين استكشفوا كذلك وثائق صينية وعربية تلقى ضوءا على الحالة السياسية المعقدة التى كانت عليها آسيا الوسطى فى ذلك العصر.

ووصلت أنباء كشف هذه المخطوطات العربية إلى لينتجراد قبل عودة البعثة، وكانت هذه الأنباء من الغرابة بحيث حملت الشك إلى نفسى. فقد كان يقال إن هذه الأسانيد مكتوبة على الرق. فى حين أنه لم يعرف فى العالم إلا ستة مخطوطات عربية قد كتبت على الرق. وكان من الصعب أن نفرض أن هذا العدد قد زاد فجأة فى تاجستان دون البلاد العربية. كان يخيل إلى أن ما استكشف مقصور على جزء من القرآن كتب على رق، ولا شك فى أن هذا الجزء قد يكون قيما ولكن لا يمكن أن يعد نادراً. وقد أيد هذه الفكرة كتاب من رئيس البعثة ا. فريمان وهو أحد زملائى فى الجامعة وأكبر منى سناً. وإلى جانب ذلك فقد كتب لى

أنهم عثروا على قطعة صغيرة من الجلد يمكن أن يقرأ عليها بخط عربي واضح « لا إله ». كان ذلك ، بوجه التقدير ، جزءاً من التشهد الاسلامى . وسرى النبأ بأن من فحصوا مستنداً كبيراً ، فى آسيا الوسطى ، قد عثروا فيه على اسم طرخون ، أحد كبار ملوك الصفد إبان عصر الفتح العربى . أما أنا فقد كنت أميل إلى إسناد كل هذه الأنباء إلى حماسة الذين أرادوا أن يربطوا كشفهم بتاريخ البلد ، وهذا أمر مغتفر .

ومهما كان الأمر فان فضولى كان عظيما . وحاولت أن أحصل على صورة فوتوغرافية من المخطوط ، ولا أدرى لماذا لم يستطيعوا عمل هذه الصورة فى آسيا الوسطى . ودارت مناقشات ذات صبغة خاصة بين المصالح حول من عسى أن يحتفظ بهذه المخطوطات ، وأين تحفظ ، وإلى من تسند دراستها .

وإنه لمن حسن الحظ فى النهاية أن المخطوطات قد وصلت إلى لينجراد . وعلمت فى شهر يناير ١٩٣٤ أنها وضعت مؤقتاً فى قسم المخطوطات فى المجمع العلمى . كنت مريضاً ، تنتابنى حمى شديدة . ولكنى بالطبع ، لم أتمالك نفسى من الذهاب فى اليوم التالى ، إلى المجمع وأنا أسير على رصيف الجامعة الذى كنت أعرفه منذ عدة سنوات . لم أكن وحدى ، إذ كانت زوجتى ترافقنى . وكانت منذ ست سنوات قد تعمقت علمى الخطوط والنقوش إلى حد أنها ، منذ عهد بعيد ، كانت تجيد أحسن منى قراءة الحروف الكوفية ، فكنا نتذاكر ونحن نبتسم أنه منذ ربع قرن مضى كنا نزور جوامع القاهرة ، فكان علماء المسلمين فيها يجيبون على أسئلتنا فى صدد هذه النقوش : « ولكن هذا كوفى ! لا يمكن قراءته ! » أما الآن فان استعدادها ونظرتها الثاقبة فى قراءة الخطوط كانا يساعداننى كثيراً على قراءة بعض العلامات فى فك رموز بعض العلاوات فى المخطوطات عند ما كانت تبدو لى غير واضحة على الرغم من معرفتى للغة العربية ؛ إذ يخيل إلى أن مرور السنين يخول لى حق الادعاء بالمامى بهذه اللغة .

والتقينا فى القسم الخاص بالمخطوطات فى الطابق الأرضي حيث توجد المكتبة ، بالسيد ا . فريمان ، وقد كان جالساً أمام المائدة الكبيرة . كان غارقاً فى فحص حروف أو « عصى » الصفد التى جاءت بها البعثة . كان ، على عادته ، هادئاً رزيناً . ومع ذلك فان هيأته كانت تدل على أنه « متغيب » بمنظاره المستدير الذى كان يرفعه فى كل لحظة إلى جبينه . كان قد أعد لى مظروفا ، فأخرج المستند وهو يرمق التأثير الذى أحدثه فينا .

وشعرت بأنى قد تحطمت من أول نظرة ، وأن الدم تصاعد إلى رأسى تحت تأثير الانفعال . ثم شعرت بأن سحابة تظلل على عينى ، وخارت قواى . وكنت أمسك بقطعة من الجلد المجعد قرضها الدود ، فلم أر عليها — كما لو كان ذلك من وراء ضباب من البخار الأحمر — إلا حروفاً عربية متناثرة ، دون أن أستطيع تمييز كلمة واحدة . وأخذ قلبى يخفق كأنما يريد أن يقفز خارج صدرى . وكانت فكرتى الأولى رهيبة : « لن أجلو شيئاً ! » . ومع ذلك سرعان ما خجلت . وبذلت جهوداً كبيراً من إرادتى لأرغم نفسى على إلقاء نظرة ثانية على المخطوط فرأيت إذ ذاك أننى لا أستطيع أن أحدق النظر ، فهناك ضباب أرجوانى يخيم على عينى .

واستنجدت بجميع إرادتى ، وأخذت أحدق تارة فى عبارة من المستند ، وتارة فى ناحية أخرى . ولكننى كنت لا أستطيع أن أقف نظرى طويلاً . وطرأت على أفكار محمومة عقب كل نبضة عصبية . فكنت أتمتم بغير وعى وبصوت مرتفع : « أجل ، فى السطر الأول نهاية العبارة المقدسة التى تكتب عند بدء كل خطاب : « باسم الله » . . . إذن تلك فاتحة رسالة ،

وليست صفحة منتزعة من وسط كتاب . . . أجل ! فى الواقع كان اسم طرخون مكتوباً فى الوسط . . . يقيناً ، ليس هذا بقرآن . . . ولكن ماذا عسى أن يكون ؟ » كانت فكرتى تشتغل عاجزة ، وتعذبنى . وكنت أشعر بطنين فى أذنى : « أهى رسالة ؟ أجل ، أجل . فنى نهاية السطر الثانى يوجد : « من . . . عميله . » ولكن الاسم ؟ الاسم ؟ « ديوا ؟ » ديوا ؟ أجل ، حسناً « ديوا » بحرفى « ى » و « ا » مستطيلين . ياللسخف ! ليس هذا اسما ! والسطر الثانى يبدأ أسوأ من الأول : يقرأ فيه بوضوح « سى » ، وهذا لا يوجد فى اللغة الفصحى ، لا تستعمل « ستى » إلا فى اللغة الدارجة . وهى تعنى « مولاتى » . فماذا تفعل هذه هنا ؟ سطر ينتهى بكلمة « ديوا » ويبدأ الثانى بكلمة « ستى . . . » ومن جديد أخذ نبضى يدق دقات مضاعفة . قد تكون كلة واحدة شطرت إلى مقطعين للانتقال إلى سطر جديد ؟ هذا دارج فى الرقوق فى مصر . ديواستى ، ديواستى . . . ليس هذا باسم ! إن الاسم طارخون يصادف فى المؤلفات التى تتكلم عن آسيا الوسطى ، ولكن لا يوجد اسم ديواستى . . ومع ذلك فهو ديواستى ! »

فنظرت رفيقى إلى فريمان وسألته : « ألكسندر أمولدوفتش ، ألم تصادف شخصاً باسم ديواستى فى مستندات الصفد ؟ » فارتعش فريمان ، ومنظاره معلق على جبينه . كان مشدوهاً مضطرباً وأجاب فى النهاية : « كلا . . . ولكن يوجد شئ مثل ديوان فى كل مكان . . . وربما كان مرجع ذلك إلى ديوان أى مقر الحكومة وربما كان عنوان كتاب ؟ » فصحت : « كلا ! فهنا ، باللغة العربية ، كلة ديواستى . . . ديواستى ! » .

وفجأة طرأت على فكرة ، فوثبت عن مقعدى وخرجت أجرى . تمت دهشة من كانوا جالسين أمام المائدة ، وقارئ اللغة الايرانية الصغير الذى جاء لمقابلة فريمان الذى جمد فى مكانه من هيئتى الشاردة وغرابة الحوار . وصعدت إلى الدور الثامن عن طريق السلم الجانبى لأصل سريعاً ، هناك يوجد معهد البحوث الشرقية ومكتب الدراسات العربية . هناك على رف صفت مجلدات المؤرخ الكبير الطبرى . وساورنى الأمل بأننى سأجد فيها تفسيراً لهذه الكلمة .

ومن حسن الحظ أننى لم أصادف أحداً على السلم ولا فى المكتب . كنت أعلم أن منظرى كان مخيفاً وأننى كنت عاجزاً عن تفسير ما ألم بى .

كنت ألهث من العدو . واندفعت نحو الرف المعروف وفتحت فهرس الطبرى ، وأخذت أقلب صفحاته وأنا محموم باحثاً عن اسم متقارب . كان نظرى مضطرباً ، ومع ذلك قرأت تقريباً جميع الأسماء التى تبدأ بحرف د . لم أجد بينها ديواستى ، فشعرت بقلبى يخور . وبغتة قرأت بعد بضعة سطور تحتها « ديواشنى » . فصحت لنفسى : « ولكن لا يوجد إلا اختلاف فى النقط ! » هذه نفس الكلمة ! فلم أصدق عينى . وأخذت أقرأ فى الكتاب الصفحات التى أشير إليها فى الفهرس . لم يعد مجال للشك . لقد ورد ذكر ذلك فى آسيا الوسطى ، كما ورد ذكر حوادث وقعت فى القرن الثانى للهجرة . لم أكن بحالة تمكننى من التبحر فى القراءة ولكن لم يبق عندى مجال للشك وأضاءت شعلة فى خبيئة نفسى .

ونزلت بنفس السرعة التى صعدت بها . ولو أننى كنت أصغر سنا بعشرين عاماً لامتطيت حاجز السلم كالجواد لأنزل بسرعة أزيد . وسقطت على مقعد ولم أستطع إلا أن أتمتم ، وأنا أخاطب فريمان الذى لم يفهم بعد السبب فى هروبى السريع : « لقد وجدت ديواستى ! »

كان ذلك غير منتظر إلى حد أن ثلاثة أزواج من العيون المشدوهة قد سلطت إلى بذعر. وعند ما استعدت تنفسى وسردت بعبارات متقطعة ما فى الموضوع كان الابتهاج عاماً. لقد شعروا كلهم أن السر قد وضح، وأن الخيط الموصل قد وجد. وجاء رد الفعل بعد هذه الانفعالات وشعرت بأن قواى قد خارت.

فى ذلك الصباح لم أستطع أن أسير فى دراسة المستند إلى أبعد من ذلك، ولكننى كنت مطمئنا: لسوف يكون العمل شاقا طويل الأمد، ولكننى كنت واثقا من أننى على الطريق القويم. وفى اليوم التالى بالذات كنت فى حالة عقلية مختلفة. فأخذت أتبين الخطاب بانتظام، وفى نفس الوقت كنت أراجع الصفحات المقابلة فى الطبرى. الآن، كنت أستطيع أن أفحص المستند دون تخوف من إشاراته. وإذ ذاك فقط أمكننى أن أقدر روعة الجمال فى خط الكاتب الخطاط.

كل يوم كان يحمل لى أفراحاً وأشجانا، واستكشافات صغيرة ويأساً. ولكن لم يعد شىء يخيفنى. فتلك القطعة الصغيرة من الجلد المجعد التى بقيت فى جوف الأرض مدى اثنى عشر قرنا، لا تستطيع أن تخفى أسرارها على التحليل الذى يجريه العالم فى قراءة الخطوط القديمة؛ لم يكن يمكنها أن تحافظ على الصمت متى ووجهت بالمؤرخ الذى دونت أقواله فى أسفار الطبرى الثمينة.

فى الواقع كان اسم ديواشنى مفتاح السر؛ فهو لم يفسر لنا الخطاب العربى فحسب، ولكنه قدم لنا أيضا قاعدة لدراسة مستندات الصفد. كان ديواشنى ملكا على الصفد، وتلك كانت آثار المحفوظات التى استكشفتها البعثة فى جبال موجس. أما اسم الخليفة العربى الذى وجهت إليه تلك الرسالة فقد أمكن الوقوف عليه بعناء أقل، وهذا ما ساعد على تحديد تاريخ هذا المستند ورجعه إلى عام ١٠٠ للهجرة أى حوالى سنة ٧١٨ — ٧١٩ من تاريخنا. لقد انتزعنا كل ذلك من الرسالة حرفا حرفا.

أما قطعة الجلد الصغيرة التى قرضها الدود والتى استكشفت إلى جانب الرسالة وتحمل أول البسملة، فقد وجدت مكانها سريعاً فى المستند. لقد نجحنا حتى فى إعادة تكوين السطور التى التهمها الدود الشره. وإنى، عند ما أنظر الآن إلى الصورة الفوتوغرافية التى أخذت للخطاب على الجلد الأملس الناعم، لأسائل نفسى أحيانا: كيف توصلنا إلى قراءة السطور التى لم يبق منها فى أغلب الأحيان غير حرف أو حرفين، وكيف استطعنا أيضاً أن نحزر معنى ما كان قد التهمه الدود؟

إننى لأفخر بعلمنا الذى تسمح أساليبه الدقيقة أحيانا، بايجاد ما يخال، عند أول نظرة، أنه قد اختفى إلى الأبد. إننى لأعتقد أن جميع الناس يشعرون بمثل هذا الاحساس، حتى علماء مختلف الفروع الأخرى الذين جاءوا بعد أسبوعين — فى فبراير — لحضور اجتماع المجمع العلمى الذى عقد خصيصا لتلاوة البيان الخاص ببعثة جبال موجس. كانت حجرة المطالعة فى معهد الدراسات الشرقية، مكتظة بعد أن كانت فى الغالب لا تضم بين جدرانها إلا عدداً قليلا من القراء. لم تكن الأماكن مشغولة بأكملها فحسب، بل كانت الردهات مكتظة كذلك. وحضر سكرتير المجمع الدائم فى وسط الجلسة. وما إن فتح الباب حتى بدرت منه عفواً حركة ارتداد، لأن المنظر الذى وقعت عليه عينه كان أبعد من أن يشبه بمنظر الجلسات العادية لجماعة المستشرقين. كان ذلك انتصاراً للبعثة التى زادت فى ثروة العلم باضافة مستندات لم تنشر، وانتصاراً

العلم ذاته ، لأنه يعزز قوته بأجلى بيان ، ويضع معارفنا فى مستوى أرفع أمام أنظار الجميع .

وليس ثمة حاجة إلى القول بأن دراسة تلك المستندات لم تقف عند حد هذا الاجتماع ، ولا عند نشر « مجموعة الصفد » التى ظهرت فى نفس السنة . إن هذه المجموعة تشرح أهم النتائج العلمية التى تم الحصول عليها ، وتبين أساليب الدراسة المنظمة التى اتبعت فى حل رموز الرسالة العربية التى تحدثت عنها فيما تقدم . لقد عرفنا ، مع الزمن ، أن اسم الشخص الرئيسى كان يقرأ ديواشتى وليس ديواستى. لقد نجحنا فى استكشاف اسم القصر الذى احتمى به مع رجاله بعد مقاطعته للعرب نهائيا . بل قد أمكن الوصول إلى استكشاف سلالة الماعز الذى يرجع إليها نوع الجلد الذى كتبت عليه الرسالة . إنه لمن المرجح أن كثيراً من التفاصيل الأخرى سترى النور من دراسة هذه المستندات فيما بعد . وإنى لأرجو أن يأتى شخص فيحسن أو يتمم قراءة بعض الحروف والكلمات التى بقيت خافية علينا . ولكن تلك ليست إلا تفاصيل . لقد وجدنا الطريق الذى يتبع بمجرد الوصول إلى تفسير ذلك الاسم الخفى العجيب وهو ديواشتى . إن تلك اللحظة من الايحاء الوجدانى ، وهذا النوع من الاستكشاف كانا فاتحة نمو فى عالم التحليل العلمى . وبفضله أصبح هذا الاسم مألوفاً عند كل عالم فى القراءات الفارسية ، وكذلك عند مؤرخى آسيا الوسطى .

إن المستعربين لسعداء ، لأن رسالة الصفد ، التى وقعت تحت يدهم ، لم تكن فقط أثراً بارزاً ونادراً لفن قراءة الكتابات العربية القديمة ، ولكنها كذلك مصدر تاريخى من الطراز الأول .

ا . كراتشكوفسكى

نقلها عن الفرنسية سليم سعده